العدالة لدى جون رولز ونقادها

مارتان لوغرو

ترجمة: عبد الله كسابي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2023

All rights reserved © 2023

العدالة لدى جون رولز ونقادها[1]

تحرير: **مارتان لوغرو[2] Martin Legros**

ترجمة: **عبد الله كسابي**

1- العنوان الأصلي للنص المترجم ومصدره:

Et Rawls inventa le bon partage, Martin Legros, philosophie magazine N° 128, Avril 2019, p. : 51-56

2- مارتان لوغرو Martin Legros فيلسوف وصحفي بلجيكي مقيم بباريس، خريج الجامعة الحرة ببروكسيل، مختص في الفلسفة السياسية، ورئيس تحرير مجلة Philosophie magazine الفرنسية.

ملخص:

يقدم **مارتان لوغرو**، في هذا المقال، صورة بانورامية عن نظرية العدالة **لجون رولز** ونقادها البارزين: فبالانطلاق من نقد التقليد النفعي الأمريكي، توخى رولز إعادة صياغة فكرة العدالة، مستلهما فكرة التعاقد، ومستعينا بفرضية حجاب الجهل: فمبادئ العدالة يجب أن تكون نتاجا لتفاوض منصف، حيث الأفراد الأحرار والعقلانيون الساعون لاختيار المبادئ الموجهة للبنية القاعدية للمجتمع، على جهل بوضعيتهم الخاصة فيه، وذلك طلبا للحياد، واستبعادا لأثر الصدف الطبيعية وعرضية الظروف الاجتماعية في اختيار مبادئ العدالة. هذه الأخيرة التي لن تخرج عن ثلاثة مبادئ: مبدأ المساواة، ومفاده أن لكل فرد حق متساو في النظام الأكثر اتساعا من الحريات الأساسية المتساوية بالنسبة للجميع؛ ومبدأ المساواة في الحظوظ، بالنسبة لمستوى متماثل من الموهبة، في بلوغ الوظائف والمناصب؛ ومبدأ الاختلاف، الذي بحسبه تكون أشكال اللامساواة الاجتماعية والاقتصادية عادلة إذا كانت ستترتب عنها امتيازات ومنافع بالنسبة للجميع، وبخاصة للأفراد الأقل حظا.

وهذه النظرية كانت موضوع نقد من فلاسفة ومفكرين من كل الاتجاهات والتخصصات: **فروبير نوزيك** يرفض تصور رولز لمبدأ الاستحقاق كنتاج لصدف طبيعية وعرضيات اجتماعية، مؤكدا أن مواهبنا ملك لنا. و**جيرالد كوهين** يؤكد أن المساواة تتطلب ليس فقط آلية لإعادة التوزيع، أو قواعد عدالة قائمة على الإكراه، بل تفترض إيتوسا أو نزوعا مشتركا نحو المساواة يحكم الاختيارات الفردية، ويحد من أشكال اللامساواة. أما **أمارتيا سِنْ**، فيدعو إلى تلافي التمركز حول ما يسميه رولز بالخيرات الأولية، والانفتاح بدل ذلك، على المَقْدِرات؛ أي على ما يكون الأفراد قادرين على القيام به فعليا، وذلك من خلال مقاربة قائمة على رصد أشكال الظلم التي يكابدها هؤلاء، في علاقة بمبادئ تعددية للعدالة. ويعترض **مايكل ساندِيل** على الفكرة القائلة بتحديد مبادئ العدالة بمنأى عن كل تصور للخير، موضحا أن الأحكام الأخلاقية لها، في الغالب، موطئ قدم في تقييم الغايات التي من شأن هذه المبادئ خدمتها؛ فالأمر في العدالة لا يتعلق فقط بتوزيع الخيرات، بل أيضا بتقييمها أخلاقيا.

النص المترجم:

وقع جون راولز، من خلال كتابه «نظرية العدالة»، المؤلف الفلسفي الأكثر إثارة للنقاش في العالم، هذا الكتاب الذي لُوِّح به حتى في ساحة تيان آن من Tien'anmen من قبل الطلبة الصينيين سنة 1989. وينشد هذا المقال اكتشاف المفكر الذي أحدث انقلابا في تصورنا للمجتمع العادل، وكذلك الاعتراضات التي صاغها نقاده، من الليبرتاري روبير نوزيك Robert Nozick إلى الحاصل على جائزة «نوبل» في الاقتصاد أمارتيا سن Amartya Sen.

«هذا ظلم! من لا يذكر الإحساس الذي خامره، عندما كان طفلا، بأن حظ الآخرين أفضل من حظه. بالنسبة إلى جون «جاك» بوردلي رولز (1921 - 2022) John «Jack» Bordley Rawls، الفيلسوف الذي أحدث انقلابا في سؤال العدالة الاجتماعية من خلال كتابه الشهير «نظرية العدالة» - الذي نشر سنة 1971، وقد بلغ من العمر خمسين عاما وكان مجهولا لدى جمهور القراء- قد يكون الأمر كذلك. وإذا كنا لا نعرف الكثير من الأشياء عن هذا المفكر المتحفظ والمحدود الكريزما، إلا أن هنالك سلسلة من الأحداث الصادمة التي لعبت بلا شك دور الشرارة. ولد رولز في بالتيمور في حضن أسرة ميسورة من خمسة أطفال، من أب محام مالي، وأم مناضلة على حقوق النساء. أصيب وهو لم يبلغ سن السابعة بعدُ بالدفتيريا، التي انتقلت منه إلى أخيه الأصغر بوبي Bobby... الذي توفي بها. في النص الأتوبيوغرافي الوحيد الذي وُجد بعد وفاته، المعنون بصورة ساخرة «العادل جاك» -في الوقت نفسه المتواضع «العادل جاك» والمبجل «جاك العادل»، الذي كان توقيعه في مراسلاته مع أصدقائه-، ويتحدث عن وفاة أخيه: «أذكر بحرارة اليوم الذي ووري فيه الثرى [...]. بدأت في البكاء دون أن أستطيع التوقف، وبالأخص عندما قالت لي ناني Nannie [جدته] إن بوبي كان أكثر موهبة مني. هذا شيء فظيع ليقال لطفل!» (أوردته ريما هاوي Rima Hawi في كتابها John Rawls, Itiniraire d'un libéral américain vers l'égalité sociale, Classique Garnier, 2016). تحت وقع الصدمة، أصيب رولز بتأتأة سيحتفظ بها كل حياته. أقل من عام بعد ذلك، سيصاب بالتهاب رئوي، نقله إلى أخ أصغر آخر تومي Tommy... الذي توفي به أيضا. «مرة أخرى، أحد إخواني الصغار توفي بمرض نقلته إليه. فكرت في الموضوع طويلا، معتبرا نفسي مذنبا وبالنتيجة مسؤولا عن عزلتي الخاصة وعن وحدتي».

تجارب أخرى وسمت حياة رولز: التمييز العرقي ضد السود في بالتيمور، ومجاورته للصيادين الفقراء في بروكلين بمناسبة العطل الصيفية، وتمدرسه في مدرسة كينت سكول Kent School، وهي مؤسسة أسقفية صارمة جدا كانت ستُعِدُّه للنشاط الديني قبل أن يختار التوجه إلى دراسة الفلسفة، وأيضا تجربته في الحرب، بعد دراساته بجامعة برينستون Princeton، كجندي أمريكي في الفرقة الثانية والثلاثين من المشاة في المحيط الهادئ وفي اليابان - حيث زار هيروشيما المدمَّرة، الشيء الذي أفقده، بالإضافة إلى

الهولوكوست، معتقداته الدينية -، وفيما بعد، الانقسامات حول حرب الفيتنام والنضال من أجل الحقوق المدنية. كل هذه الأحداث ساهمت في إعادة طرح سؤال العدالة في الولايات المتحدة الأمريكية في النصف الثاني من القرن العشرين. لكن الفقدان المبكر لأخويه جعلت «العادل جاك» شديد الحساسية إزاء عرضية المصائر الفردية، واعتباطية الحظ، وهشاشة مفهوم الاستحقاق- كل هذه الأشياء التي توجد في صميم كتابه «نظرية العدالة».

العادل، هذا مما لا يتحدد بعملية حسابية

تكمن العدالة في «إعطاء كل واحد ما يتوجب له»، كما قال الفقيه القانوني الروماني إيلبيان Ulpien (القرن الثالث بعد الميلاد) سائرا في ذلك على خطى أرسطو Aristote. إنها تتيح توزيع الخيرات والحقوق، كما الوضعيات والمداخيل؛ وذلك بحسب عدد معين من المبادئ. ولكن أيضا تحديد القواعد التي تسمح بالحكم في النزاعات على المستوى اليومي. كيف يتعين تحديد هذه القواعد؟ وعلى ماذا ينبغي تأسيسها؟

إذا كان رولز قد طمح إلى إعادة صياغة فكرة العدالة، فذلك انطلاقا من عدم رضا أول إزاء التصور السائد آنئذ في الولايات المتحدة الأمريكية، ويتعلق الأمر بالتقليد النفعي، الذي يعود إلى جون ستيوارت ميل John Stuart Mill وجيرمي بنتام Jeremy Bentham، والذي يمثل قاعدة «الطريقة الأمريكية في التفكير» «american way of thinking». يجعل هذا التقليد النفعي من المنفعة المشتركة؛ بمعنى «السعادة الأكبر للعدد الأكبر»، المعيار الحاسم. فمن أجل اتخاذ القرار ما إذا كان إصلاح ما عادلا، سواء تعلق الأمر بتقليص الضرائب، أو الرفع من العقوبات السجنية، أو تقنين الدعارة، يتعين التساؤل ما إذا كان هذا الإصلاح سيفضي إلى زيادة الرفاهية الجماعية. فمن خلال احتساب التكلفة والمكاسب، نتوصل إلى معرفة ما إذا كان يتعين الرفع من السرعة المسموح بها في السير على الطرق (الذي سيسمح بالتنقل بسرعة أكبر مقابل عدد أكبر من الحوادث) أو رفع ثمن علبة السجائر (الذي سيحد من رضا المدخنين لكنه سيقلص من عدد الموتى جراء استهلاك التبغ). ومن الأكيد أن رفاهية ساكنة معينة معيار أساسي لكل سياسة عمومية، لكن هل يمكن أن يفيد كأساس للعدالة؟ لأنه باسم رفاهية العدد الأكبر يمكن أن ينتهي بنا الأمر إلى خرق حقوق أقلية ما. وهذا، على سبيل المثال، ما يبرر، بالنسبة للنفعيين، اللجوء إلى التعذيب: تعريض مذنب مفترض لمعاناة من أجل إنقاذ العديد من الأرواح البريئة. وأيضا هذا من شأنه أن يفضي، في مجال الصحة العمومية، إلى اعتبار حياة امرأة ستينية أقل «منفعة» من حياة امرأة ثلاثينية... ألا توجد، مع ذلك، حقوق لا يمكن المساس بها، والتي تقع فيما يتعدى كل حساب أو منفعة؟ أليست العدالة قيمة متمايزة وأسمى من الرفاهية الجماعية؟

انطلاقا من هذا الحدس يدعو رولز إلى إعادة تأسيس فكرة العدالة، مستلهما الفكر التعاقدي الأوروبي للوك وروسو وكانط، الذي انشغل بعدم تذويب الحقوق والحريات الفردية في المجموع الافتراضي للرفاهية

الجماعية. «كل شخص يمتلك عدم قابلية للانتهاك تتأسس على العدالة، والتي لا يمكن أن تُخرق، ولو باسم رفاهية مجموع المجتمع»، هذا ما يؤكده رولز في افتتاح كتابه «نظرية العدالة». فالعادل يجب أن يكون له قدم السبق على الرفاهية الجماعية، وإلا فإن قمع الأكثر ضعفا وقمع الأقليات ليس أبدا ببعيد.

حجاب الجهل

صعوبة أولى تظهر بمجرد ما ننشد، بوصفنا أشخاصا أحرارا وعقلانيين، منشغلين بإعطاء الأفضلية لمصالحنا، التفاهم على مبادئ العدالة. فقد نقع في خطر إعطاء الأفضلية لمبادئ تتوافق ومصالحنا، أو معتقداتنا الأخلاقية، أو الدينية، أو وضعيتنا الاجتماعية. فإذا كنا نعلم أننا أغنياء، سننشد تقليص الضرائب. وحتى عندما نتوصل إلى تفاهمات، فإن هذه الأخيرة ستعكس علاقة القوى القائمة، دون أن تكون عادلة، فلا يكفي أن يتحقق إجماع بين الأفراد بشأن اتفاق ما، لكي يكون هذا الاتفاق عادلا. وفضلا عن ذلك، لا يمكن أن نفرض على الأفراد، على الطريقة الأفلاطونية، فكرة متعالية للعادل يحددها الفيلسوف-الملك.

من أجل التغلب على هذه الصعوبة، يقترح رولز تجربة فكرية: لنفترض أننا نجهل كل شيء عن وضعيتنا في المجتمع. فلا نعلم إلى أي طبقة، ولا إلى أي إثنية ننتمي، ولا أي معتقدات نعتنق، وما إذا كنا مرضى أو بصحة جيدة، شبابا أو شيوخا، إلخ. كما لو أن أعيننا وذهننا مغطى بـ «حجاب للجهل» حسب العبارة الجميلة لرولز. «فهذا من شأنه أن يضمن ألا تكون لأي شخص الأفضلية أو عدم الأفضلية، انطلاقا من الصدفة الطبيعية أو عرضية الظروف الاجتماعية، في اختيار المبادئ.» وأكثر من ذلك: عندما نكون جاهلين لما سيكون وضعنا في المجتمع، فإننا سنميل إلى اختيار المبادئ التي من شأنها الحفاظ على مصير الأفراد الأقل حظا... مادام أن ذلك قد يكون مصيرنا نحن. إن نقطة الانطلاق هذه كانت موضوع انتقادات عديدة، لأنها تجذر فكرة العدالة في المصلحة العقلانية لأفراد مجردين، ومعزولين عن انغماسهم في تاريخ، وفي مجتمع، وفي هويات مرتبطة بالطبقة أو النوع. لكن ما تكمن فيه حدودها تكمن فيه أيضا قوتها؛ فالعدالة تصير «البنية القاعدية» لكل مجتمع، وهي بنية كونية لا تفترض أي فكرة للخير. ثلاثة مبادئ تبرز في هذه الوضعية. مبدأ أول يتمثل في المساواة في الحرية، له الأولوية على المبادئ الأخرى. وهذا المبدأ يضمن لكل فرد حقا متساويا في النظام الأكثر اتساعا من الحريات القاعدية المتساوية بالنسبة إلى الجميع: حرية التفكير، والعقيدة، والتعبير، والاجتماع، واختيار المهنة، وحق الملكية، والتصويت، والأهلية. المبدأ الثاني، المساواة في الحظوظ، ويضمن، بالنسبة لمستوى متماثل من الموهبة، المساواة في الولوج إلى الوظائف والمناصب. ومبدأ ثالث، أخيرا، يطلق عليه «مبدأ الاختلاف»، ويفترض أن «أشكال اللامساواة الاجتماعية والاقتصادية عادلة إذا وفقط إذا كانت تنتج، بالمقابل، امتيازات لكل واحد، وبالأخص للأعضاء الأقل حظا في المجتمع».

إن رولز ليس ذا نزعة مساواتية جذرية، فهو لا يعتقد أنه من الممكن ولا من المشروع القضاء على كل الفوارق باسم مساواة في النتائج، لكنه ليس أيضا من دعاة ترك الأمور لحالها laisser-faire، فهو

أبعد من ذلك. ومن هنا هذا المبدأ المسمى بـ«الحد الأقصى» «maximin» أو «الرفع من الحد الأدنى» «minimax»: التفاوتات ليست مقبولة إلا إذا كانت في مصلحة الأقل حظا، وكانت تساهم في «الارتقاء» بوضعيتهم – ومن خلال هذا يستحضر رولز جانبا من الحساب النفعي. فإقامة مساواة فعلية من شأنه، في نظر هذا الأخير، تثبيط الأفراد عن تطوير مواهبهم، مادام أنهم يعرفون مسبقا بأن الجميع في النهاية سيحظون بالشيء نفسه. وهذا يضاف إليه، أن أولئك الذين سيكون لديهم أقل في أول الأمر قد لا يرون أن حظهم يسير نحو الأحسن فعليا. كيف يمكن إذن، إنقاذ مطلب الإنصاف مع إفساح المجال للاعتراف بالكفاءات المتباينة ولأشكال التفاوتات التي لا يمكن إلا أن تترتب عنها؟ لتحقيق ذلك، سيتعين أن تكون الفوارق الوحيدة المقبولة هي على وجه الدقة، تلك التي يستفيد منها الأقل حظا؛ وذلك مثلا من خلال إنشاء نظام فسيح لإعادة توزيع الثروات المنتجة.

ضد الاستحقاق

إن هذه المبادئ ستفضي إلى الدفاع عن «المساواة الديمقراطية» التي تضع فكرة الاستحقاق موضع مساءلة. فالليبرالية لها، حسب رولز، وجهان: «الحرية الطبيعية» و«الحرية الليبرالية». في الحالة الأولى، التي تُمَفْصِل حرية السوق مع المناصب المفتوحة أمام الجميع، توزيع الثروات نتيجة للمواهب والملكات الطبيعية، دون إيلاء أي اعتبار للظروف الاجتماعية وللعرضيات الفردية. أما في الحالة الثانية، فيجري الحرص على مساواة فعلية في الحظوظ، من خلال العمل، بواسطة التربية بالأخص، على ضمان أن أولئك الذين يمتلكون كفاءات متماثلة يمكنهم أن يحظوا بآفاق متماثلة أيضا. فهذا هو أساس النظام الاستحقاقي.

إن هذا الأمر أساسي، لكنه ليس كافيا مع ذلك في نظر رولز، لأن «التوزيع يقوم على اليانصيب الطبيعي وهذه النتيجة اعتباطية من زاوية النظر الأخلاقية. فليس هناك من سبب معقول للسماح بأن يكون توزيع الدخول (جمع دخل) والثروة محددا بتوزيع الملكات الطبيعية أو بالصدفة الاجتماعية أو التاريخية». وهذا – بالمناسبة – ما يجعل من الأسرة قاعدة لا يمكن تخطيها: «فمبدأ الإنصاف في الحظوظ لا يمكن أن يطبق إلا بشكل غير كامل على الأقل بقدر ما سيظل شكل من الأسرة قائما». وإذا ما قبلنا عَدَّ المواهب الطبيعية اعتباطية، فماذا عن الجهد؟ «هل لدينا استحقاق في أن طبعا راقيا جعلنا قادرين على القيام بالجهد اللازم لصقل مواهبنا»؟ يجيب رولز بالنفي؛ لأن «طبعا كهذا يتوقف، في جزء كبير منه، على الوسط الأسري السعيد وعلى الظروف الاجتماعية للطفولة التي لا يمكن أن ننسبها لأنفسنا. فمفهوم الاستحقاق لا مكان له هنا». والنتيجة: لست المالك، بل فقط الحائز على مواهبي، وإذن ليس لدي أي سبب أخلاقي بأن أطالب بثمارها.

كيف يمكن للأفراد إذن أن يعطوا أو يُوزَّع عليهم بكيفية منصفة؟ من خلال عَدِّ القدرات والمواهب «إسهاما أو ثروة للمجموع في كليته»، والتي يجب أن تكون منافذها في مصلحة الجميع، وفي مقدمتهم أولئك

الذين حرموا بصورة غير عادلة. «أولئك الذين أعطتهم الطبيعة الأفضلية لا يجب أن يستفيدوا من ذلك فقط لأنهم أكثر موهبة، بل فقط من أجل تغطية تكاليف التكوين والتربية، ومن أجل استخدام مواهبهم بكيفية تمكنهم أيضا من مساعدة الأقل حظا. فما من شخص يستحق قدراته الطبيعية الأعلى، ولا نقطة انطلاق ذات أفضلية في المجتمع.» هل يعني هذا تسوية الحصص الأصلية؟ لا، فقط يجب أن يكون نظام إعادة التوزيع بصورة بحيث «ما من شخص يحصل أو يفقد أي شيء مهما يكن انطلاقا من موقعه الاعتباطي في توزيع المواهب الطبيعية [...] دون أن يقدم أو يتلقى تعويضات بالمقابل». وفي هذا الإطار، الأكثر «موهبة» لهم الحق في المطالبة بمستحقات متباينة أو متفاوتة، لكن هذه الأخيرة بمثابة جزاء لـ «انتظارات مشروعة» تقتضيها المؤسسات، وليست خصائص طبيعية.

هذه إذن هي الهندسة القاعدية لهذا التصور الجديد للعدالة، الذي هو، في الوقت نفسه، جذري - يفكك فكرة الاستحقاق الفردي- ومتزن - يستمر في مكافأة جهود كل واحد- ومنشغل بالفعالية – يشجع الأكثر مبادرة – ومنصف – اللامساواة يجب أن تكون في مصلحة الأكثر ضعفا.

مواهبنا ملك لنا: اعتراض روبير نوزيك[1] Robert Nozick

«هل يتوجب على أسرة تكريس مواردها للارتقاء بوضعية طفلها الأقل موهبة، مع ترك الأطفال الآخرين في الخلف أو عدم استخدام مواردها لتربيتهم إلا إذا وعدوا بمساعدة أخيهم الأقل موهبة بالطبيعة طوال حياتهم؟» هكذا يستهل الفيلسوف الليبرتاري روبير نوزيك (1938-2002) نقده لـ «نظرية العدالة» في كتابه «الفوضى والدولة واليوتوبيا» Anarchie, État et Utopie الذي نشر سنة 1974، والذي يعد إحدى الصياغات الفلسفية الأكثر استماتة لمجتمع قائم على حق الأفراد في أنفسهم وعلى دولة الحد الأدنى، التي تنحصر مهمتها في ضمان أمن الأشخاص واحترام العقود. من الأكيد أن نوزيك، زميل راولز بهارفرد، يقر بأهمية مؤلف رفيقه الأكبر: «يجب على فلاسفة السياسة من الآن فصاعدا إما الاشتغال من داخل نظرية العدالة لرولز، وإما تفسير لماذا لا يقومون بذلك.» غير أن نوزيك، المعارض من أعماقه لمثال العدالة التوزيعية، ينتقد الفكرة القائلة إننا لسنا مالكين لمواهبنا. فها هنا حيث رولز يدافع عن أن الهبات الطبيعية يتوجب عدها كـ «إسهامات جماعية»، يتساءل نوزيك بسخرية: هل سنقوم بإعادة توزيع مُقل العين لفاقدي

1- روبير نوزيك Robert Nozick (1938-2002) فيلسوف أمريكي، يمثل الوجه البارز للنزعة الليبرتارية. من أبرز مؤلفاته: «الفوضى والدولة واليوتوبيا» (L'anarchie, État et Utopie (1974, trad. fr. PUF, 1998.

البصر أو اقتراح عمليات جراحية تجميلية للرجال غير المرغوب فيهم[2]؟ وبجدية أكبر، يدافع نوزيك عن أن صفات ومواهب الأفراد، حتى وإن كان فيها جزء اعتباطي وكانت ثمرة للظروف، يتوجب اعتبارها ملكا خاصا لهم. فالفرد هو المالك الوحيد لنفسه، وللخيرات المكتسبة بفضل عمله، والتي يمتلكها مثلما يمتلك جسمه الخاص. الدفاع عن العكس يعني وضع مبدأ عدم قابلية الأشخاص للانتهاك والاستقلال الفردي، الذي يدعي رولز الدفاع عنه، موضع سؤال. ويرى نوزيك أن الضريبة الضرورية من أجل تمويل نظام لإعادة التوزيع ذاتها بمثابة صورة من العبودية، ومن العمل القسري -الدولة تستخدم قدرات الإنتاج لدى البعض من أجل أن يستفيد من ذلك آخرون. «الحصول على نتائج عمل أحد ما تعادل القبض عليه لساعات وإعطاءه أمر القيام بأنشطة مختلفة [...]. فالسيرورة التي يتخذون من خلالها قرارات تخصكم يجعلهم مالكين جزئيين لكم.»

إتيقا المساواة: اعتراض جيرالد ألان كوهين[3] Gerald Allan Cohen

إن المساواة ليست نتاج آلية لإعادة التوزيع، إنها قبل كل شيء بمثابة إيتوس éthos، أي نمط حياة. هذا هو اعتراض الفيلسوف جيرالد ألان كوهين (1941-2009)، الذي يعد وجها من وجوه التيار الماركسي التحليلي. فهذا الفيلسوف الكندي، الذي رعته أسرة عاملة شيوعية، وكان ماركسيا أرثوذوكسيا في مراهقته، تخلى شيئا فشيئا عن الاعتقاد الذي بحسبه نهاية الرأسمالية متجذرة في قوانين التاريخ. ولذلك، صار سؤال العدالة مركزيا في فكره. ويرفض، لدى رولز، مبدأ «الاختلاف» الذي يضفي المشروعية على أشكال اللامساواة الاقتصادية. ويلاحظ كوهين في كتابه «إذا كنت مناصرا للمساواة، فلماذا أنت بهذا الثراء؟» «Si tu es pour l’égalité, pourquoi es-tu si riche ?»: «الفكرة هي أن الأشخاص ذوي الموهبة سيطورون إنتاجهم إذا وفقط إذا كان أجرهم أعلى من الأجر المألوف، وجزء من فائض الإنتاج المتحقق على هذا النحو يمكن أن يوضع في خدمة الأكثر فقرا». لكننا هنا بإزاء خيارين: فإما أن الأفراد الموهوبين «يعتقدون هم أنفسهم أن أشكال اللامساواة ليست عادلة إذا لم تكن ضرورية لتحسين وضعية الأكثر فقرا، وإما أنهم لا يعتقدون بأن هذا الأمر له شأن بالعدالة». وهذا الخيار الثاني مناقض لفكرة أن الأفراد يجب أن يؤمنوا بعدالة مجتمعهم. فمن خلال التعويل على اعتقادهم بأن أشكال اللامساواة ظالمة، «يمكن أن نسائلهم لماذا يطلبون أجرا أعلى من ذلك الذي يحظى به غير الموهوبين».

2- الحب، الظلم الأكبر؟

يقارن روبير نوزيك التنافس العشقي بالحياة الاجتماعية، وذلك بغاية رفض مشروع رولز الداعي لضمان مساواة فعلية في الحظوظ. «إذا كانت المرأة التي صارت لاحقا زوجتي رفضت شخصا آخر كان راغبا فيها (وإلا فإنها كانت لتتزوجه) لاختياري أنا، وذلك جزئيا (بغض الطرف عن اللطف الذي أتميز به) لأن لدي ذكاء ثاقب، وأتمتع بمظهر جميل، وهما الصفتان اللتان لم أستحقهما أبدا، فهل يمكن للمنافس المخذول، الأقل ذكاء والأقل جمالا، أن يندد، بصورة مشروعة، بالظلم الذي تعرض له؟ وهل من شأن الكيفية التي مَنعتُ بها هذا المنافس من الظفر بيد السيدة الجميلة، أن يبرر استخدام موارد مستمدة من إيداعات الآخرين من أجل تمكينه من عملية جراحية تجميلية ومن تكوين فكري خاص، أو من أجل الدفع مقابل درس يتوخى أن يطور فيه بعض السمات الحسنة التي لا أتمتع بها، وذلك من أجل ضمان مساواة حظوظِنا في أن نحظى بالاختيار؟». فالأمر هنا يتعلق بمماثلة تقوم على افتراض وجود مماثلة في الحب- وهو أمر أبعد ما يكون عن اليقين.

3- جيرالد ألان كوهين Gerld Allan Cohen (1941-2009) فيلسوف كندي، ينتمي إلى التيار الماركسي التحليلي. من مؤلفاته: «إذا كنت مدافعا عن المساواة، فلماذا أنت بهذا الثراء؟» Si tu es pour l’égalité, pourquoi es-tu si riche ? (2000 ; trad. fr. Hermann, 2010).

فمن خلال الرفع من حدة هذا التناقض - اللامساواة المبررة بواسطة الحوافز ليست عادلة بالمعنى الدقيق، إنها على أبعد تقدير مما لا يمكن تلافيه، من أجل تحفيز الأكثر موهبة - يتوخى كوهين بيان أن المساواة هي أولا مسألة اختيار في الحياة اليومية للأفراد. فـ «مجتمع عادل يتطلب ليس قواعد إكراه عادلة فحسب، بل أيضا إيتوسا éthos للعدالة يحكم الاختيارات الفردية». ويسجل كوهين أن هذا الإيتوس المساواتي متجذر في المجالين اللذين يبدو أن رولز يتركهما جانبا، ويتعلق الأمر بالشغل والأسرة. فمن أجل الحد من أشكال اللامساواة المرتبطة بالنوع أو ذيوع أشكال اللامساواة الأجرية، وجود نزوع مشترك للمساواة سيكون حاسما جدا مقارنة بمعيار قانوني أو آلية لإعادة التوزيع[4].

فيما يتعدى الخيرات، المَقْدِرات: اعتراض أمارتيا سن[5] Amartia sen

«إذا كان لأحد ما دخل مرتفع لكنه يعاني من أمراض مزمنة أو من إعاقات بدنية كبيرة، فلا يجب الحكم عليه ضرورة بكونه ذا امتياز كبير انطلاقا من السبب البسيط المتمثل في كونه يتوفر على وسيلة للعيش الرغيد بكمية أكبر (أي دخلا كبيرا)، لكنه يجد صعوبة في ترجمتها إلى حياة مُرضية.» فالنهج الذي يقترحه أمارتيا سن (1933-) عالم الاقتصاد والفيلسوف الهندي، المختص في ظواهر المجاعة، والحائز على «جائزة نوبل» في الاقتصاد عن أعماله حول اقتصاد الرفاهية، والقارئ الكبير لرولز - الذي يتقاسم معه نقد النزعة النفعية - يكمن في التخلي عن التمركز على وسائل العيش - التي يسميها رولز «الخيرات الأولية» (الدخول، الحقوق، الوظائف...) - للانكباب على الممكنات الفعلية للحياة. إنه يقترح من خلال مفهوم «المقدرات» «capabilités» مقاربة للعدالة أكثر انفتاحا، وأكثر حسية، وأكثر وجودية.

ماذا تكون المقدرة؟ إنها ما يكون الأفراد قادرين فعليا على القيام به انطلاقا من مما هم عليه ومما لديهم، أي «الاستطاعة الفعلية للناس على اختيار مختلف أنماط الحياة التي هي في متناولهم». أن يكون المرء قادرا على التغذية، والسكن، والتنقل، والتثقيف... ولكن أيضا على تغيير نمط الحياة إذا بدا له أن تلك التي يعيشها ليست مُرضية. وهذا يتوقف على الخيرات التي نمتلكها، وأيضا على طبيعة الرابطة الاجتماعية، وعلى الحركية، والبيئة، إلخ. وبألفاظ السياسات العمومية، يترتب عن هذا تقدير الوضعيات بكيفية مغايرة: فالوضعية المتدنية للمرأة ستُقَيَّم بصورة أفضل، انطلاقا من فحص معدل وفيات النساء، أو مستوى ولوجهن

4- لماذا الفلاسفة الداعين إلى المساواة أثرياء؟

من جون رولز إلى مايكل ساندل أو جاك رونسيير، العديد من الفلاسفة الذين يدافعون عن المساواة أغنياء. والمشكلة، في نظر جيرالد ألان كوهين، ليست في تلقي هذا المال، بل في الاحتفاظ به. يقول بهذا الشأن: "أنا نفسي أتلقى دخلا مرتفعا نسبيا، ولن تتفاجأوا إذا علمتم أنني لا أعطي إلا جزءا من المال الذي أكسبه". لماذا لا يحولون إلى الفقراء وإلى المنظمات التي تشجع المساواة الثروة التي ستنتزع منهم في المجتمع العادل الذي يدعون إليه؟ فكوهين لا يضع صدق هؤلاء موضع شك، بل يسائل تماسك موقفهم: "إذا كنت تكرهون اللامساواة لأنكم تعتقدون أنها ظالمة، فكيف يمكنكم القبول ولاحتفاظ، بدون حيرة، بمال يجسد الاحتفاظ به هذا الظلم؟" يمكن استحضار الكثير من المبررات: من رفض الإحسان إلى انتظار القضاء على أشكال اللامساواة في السلطة التي ليست أشكال اللامساواة في المداخيل إلا انعكاسا لها. لكن الأكثر غرابة، في نظر كوهين، قلة الاهتمام والتفكير التي يثيرها هذا التوتر...

5- أمارتيا سن Amartia sen (1933-) عالم اقتصاد وفيلسوف هندي، حاصل على «جائزة نوبل» في الاقتصاد سنة 1998 حول أعماله حول «المقدرات» «capabilités». من مؤلفاته «فكرة العدالة» L'Idée de la justice (2009 ; trad. fr. Flammarion, 2010).

إلى مناصب الشغل المؤهلة، مقارنة بالتركيز على دخل الأسرة فقط. فـ «الامتياز الذي لدى شخص، كممكنات، يُحكم عليه بكونه أدنى من امتياز شخص آخر إذا كانت لديه مقدرات أقل -ممكنات فعلية أقل- على تحقيق ما لديه أسباب لإضفاء القيمة عليه.» فالأمر هنا يتعلق بالانشغال بأشكال الوجود الفعلية التي تفضي إلى مقاربة قائمة على المقارنة بين أشكال الظلم التي تقع على الفرد، ولكن أيضا على تعدد مبادئ العدالة[6].

الخير، فيما يتعدى العادل: اعتراض مايكل جوزيف ساندیل Michael J. Sandel

هل لمناصري تفوق العرق الأبيض الحق في التظاهر لتأكيد سمو العرق الأبيض بذات الكيفية التي لمناصري مارتن لوثر كينغ Martin Luther King في الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية؟ هل يمكن تبرير امتداد الزواج إلى المثليين بالقاعدة الوحيدة المتمثلة في رفض التمييز أم يستتبع ذلك تحديد فضائل الزواج؟ انطلاقا من هذه الأسئلة يقوم الفيلسوف الأمريكي مايكل جوزيف ساندیل، الأستاذ بجامعة هارفرد، في كتابه «الليبرالية وحدود العدالة» «Le libéralisme et les limites de la justice» (1982 ; trad. Fr. Seuil, 1999)، بمساءلة افتراض من الافتراضات المسبقة لـ «نظرية العدالة»: «أولوية العادل على الخير». إن هذا الافتراض يحيل أولا على أن حقوق فردية معينة لها الأولوية على اعتبار الرفاهية الجماعية – كما هو الشأن في حالة منع التعذيب. لكنه يحيل بصورة أكثر عمقا على أن تبرير مبادئ العدالة لا يقوم على تصور، أخلاقي أو ديني، للحياة الخيرة. ففي مجتمع تعددي، حيث توجد كثرةٌ من تصورات الحياة الخيرة، لا تكمن مهمة العدالة في لعب دور الحكم في هذا النزاع، من أجل إتاحة تعايش هذه التصورات. ويعترض ساندیل بكوننا مكرهين في الغالب على إصدار حكم أخلاقي «حول الغايات التي تخدم الحقوق نشدانها». لنأخذ الحرية الدينية كمثال. فبالنسبة لليبرالي، احترام الدين يعني احترام حرية الفرد في الاختيار والتعبير عن معتقداته بصورة مستقلة عن قيمتها. لماذا يتوجب إذن أن تكون الحرية الدينية موضوع حماية خاصة؟ ولماذا يوجد اختلاف بصدد الحق في الحصول على عطلة بين يوم الاحتفال بمناسبة دينية ويوم إجراء مباراة في كرة القدم؟ ففكرة الحرية الليبرالية غير قادرة على أن تأخذ هذا بعين الاعتبار. وينبه ساندیل إلى عدم إمكانية الدفاع عن الحرية الدينية دون اعتماد حكم عن القيمة الأخلاقية للدين. وهذا ينطبق أيضا على حرية التعبير، وعلى تصريحات الكراهية. فإذا أرجعنا هذه الحرية إلى حق الأفراد في التعبير عن آرائهم إزاء دولة محايدة، فلا نرى لماذا يجب فرز الآراء المقبولة عن غيرها. فهذا لن يتأتى بدون تكوين

6- من الذي لديه الحق في الحصول على الناي؟

ثلاثة أطفال، آن وبوب وكارلا، يتجادلون لمعرفة من يجب أن يحصل على ناي. تحاجج آن بأنها الوحيدة التي تعرف كيفية العزف عليه، ويعترض بوب بعد امتلاكه لأي لعبة، وكارلا بصنعها للناي. فنحن هنا، في نظر أماريتا سن، إزاء نزاع بين ثلاث رؤى لا تقبل الاختزال. فمن زاوية النظر المساواتية، الناي يجب أن يكون من نصيب بوب الذي ليس لديه أي لعبة، ومن زاوية نظر ليبرتارية، الناي من نصيب كارلا، التي صنعته، وأخيرا، من زاوية نظر نفعية، آن هي التي ستستفيد من الناي بالصورة الأفضل وستجعل العدد الأكبر يستفيد منه. ويعلق أمارتيا سن أن «الحجج التي تقوم عليها مواقف الأطفال الثلاثة تتضارب ليس بخصوص ما تكونه الاستفادة الفردية (فكل الأطفال يعتبرون أنفسهم محظوظين بالحصول على الناي واستدلال كل منهم ينطوي على هذه الفكرة)، بل بشأن المبادئ العامة التي يجب أن تحكم توزيع الموارد [...]. فحججهم عامة تماما واستدلالاتهم حول طبيعة المجتمع العادل تعكس أفكارا مختلفة جوهريا، والتي من شأنها جميعها أن يدافع عنها بصورة محايدة». فمن زاوية نظر سن، هذا الصراع بين القيم من شأنه أن يرج كل ادعاء لتحديد مجموع فريد من المبادئ كما هو الشأن بالنسبة لجون رولز.

حكم أخلاقي «حول مضمون الخطابات، وطبيعة القضايا المدافع عنها، والقيمة الأخلاقية لحرمة المجتمعات المعنية بها». ويسري هذا أيضا، في نظر ساندیل، على القضايا الكبرى للأخلاق الاجتماعية كزواج المثليين أو الإجهاض: فنحن لا نستطيع الاكتفاء بضمان حرية الاختيار وغياب التمييز، بل يتوجب علينا تحديد غايات هذين النشاطين، سواء تعلق الأمر بطبيعة الزواج أو بتعريف الحياة. يقول ساندیل في كتابه «العدالة» (Justice trad. fr. Albin Michel, 2016)، الذي لاقى نجاحا عالميا كبيرا: «من المغري البحث عن مبدأ أو إجراءات مسطرية من شأنها إتاحة تبرير توزيع الدخول، والسلطة والفرص الناشئة عنها، دفعة واحدة. فالعدالة لا تحيلنا فقط على السؤال المتعلق بمعرفة كيفية توزيع الخيرات. إنها تقتضي منا أيضا القدرة على تقييم هذه الخيرات».

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2023

جميع الحقوق محفوظة © 2023